بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

لم يملأ السودان الدنيا ، ولكنّه شغل الناس ، وأصبحت بعض أقاليم السودان أشهر من كله ، حيث أصبحت كلمة دارفور منذ فواتيح هذا القرن كلمة شائعة في الوسائط الإعلامية والفضائيات كعنوان من عناوين مأزومية السودان .

وقبل دارفور كانت حرب الجنوب ، التي استمرت قرابة الأربعين عاماً وقبل حروب الجنوب كانت هناك حروب استعادة السودان بقيادة كتشنر ونجت ١٨٩٨/ ١٨٩٩م ، وفي ظلها وقعت أزمة فاشودة وهي منطقة في أعالي نيل السودان كادت أن تقود إلى حرب فرنسية بريطانية في عام ١٨٩٩م ، وسبقتها حروب المهدية ١٨٨١/ ١٨٩٩م ، وسبقت حروب المهدية حروب دولة الخديوي محمد على بالسودان . والسودان الحديث هدية دولة أحفاد محمد علي إذ تمّ تكوينه من ثلاث كيانات ، وهي منطقة وسط السودان الحالية وكانت تعرف كمملكة بسلطنة الفونج الإسلامية وتم الحاقها بدولة الخديوي محمد على في ١٨٢١م ، ثم ألحقت بها مناطق جنوب السودان الحالية في عام ١٨٣٩م ثم دارفور في عام ١٨٧٤ ، وفي عام ١٨٧٦ أصدر الخديوي إسماعيل فرماناً سمّى به كل هذه المنطقة السودان المصري .

والسودان من أكبر أقطار العالم العربي والإفريقي وترتيبه عالمياً العاشر مساحة ، وفيه أكبر المستنقعات والصحاري وأعلى درجات الحرارة وتشقه عشرات الأنهار .

وخص السودان بدرجة عالية من التنوع المناخي والسكاني واللغوي والديني وظلت حكوماته لا تعرف الكثير عن تخومه ، وتجهل كذلك هوامشه . وبينما كانت تخوم السودان تمتد لأكثر من ألف ميل من المركز ، إلا أن المركز لم يك يحكم أكثر من بضع عشرات من الأميال من المركز . وتنتشر في السودان بجانب اللغة العربية عشرات اللغات الفرعية . وكذلك بالإضافة إلى الدين الإسلامي دين غالبية الشعب إلا أنه توجد الديانات الإفريقية المحلية بالإضافة إلى المسيحية .

والسودان يجاور أقطار إفريقية تسعة منها سبعة مأزومة (إريتريا ، إثيوبيا ، كينيا ، يوغندا ، الكنغو ، إفريقيا الوسطي وتشاد) . وظل السودان يدفع الثمن الغالي لمأزوميتها حيث ظل يتدفق منها اللاجئون والمهاجرون إلى السودان لسعة أرضه وسماحة الاستقبال وسهولة العيش .

هذا السودان بتنوعه ، أصبح مستقراً للأخ الدكتور محمد الفاضل اللاّفي ، والذي يدهشك بتفهمه للشأن السوداني والإحاطة بتفاصيله ، وستقع الوحدة العربية ، حين يستطيع الباحث السوداني الإحاطة بتفاصيل المشكل الجزائري ، أو المغربي أو العراقي أو اليمني على ذات نحو إحاطة الباحث التونسي محمد الفاضل اللاّفي بالسودان . وهذه الدراسة ، دراسة متميزة تلقي الضوء على كثير من المشاهد والخبايا التي قد يضل الباحث السوداني طريقه إليها ، ونجح الدكتور محمد الفاضل اللاّفي في كتابة قصته عن جدارة واستحقاق لتحيط بالمشهد السوداني وتكشف أوضاعه وتوقعات مآلاته .

وبما أن السودان إفريقية مصغرة تحاصره مشاكلها ، فإن السودان سيظل مشدوداً لأفريقيا ، فإن نجحت إفريقيا للعبور والوصول إلى التنمية والاستقرار فالسودان موعود بذلك وإن تاهت الطرق والدروب بإفريقيا فإن ذلك سيؤثر على السودان .

فضلاً عن ذلك ، فإن السودان رواق الثقافة الإسلامية العربية في إفريقيا ورواق الأفريقانية في الساحة العالمية والإسلامية ، وحال الرواق يكشف عبقرية المكان ووضعه ولعل في استرواحة الدكتور محمد الفاضل اللاّفي فرصة للتعرف على السودان وقضاياه والتأمل في عاقبة أمره .

ومن المؤكد أن هذه الدراسة ستأخذ وضعها كمرجعية في الشأن السوداني . وفق الله صاحبها وفتح الله على الجميع بمتابعة الترقيات العلمية والمعرفية .

أ . د . حسن مكي محمد أحمد

عميد مركز البحوث والدراسات الإفريقية

الخميس ٣١/ ٠٥/ ٢٠٠٧م

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم . وبعد؛

القضية السودانية قصّة مثيرة ، وأزمة محيّرة . تتصارع فيها القوى الدولية ، ويدفع الثّمن المواطن البريء . عرقلت مشاريع التنمية ، وسمّمت النسيج الاجتماعي ، وفتّتت البنية الوطنية . لم تقتصر آثارها على تأزيم الوضع بين الشمال والجنوب ، وإنّما أصابت شظاياها كلّ الأقاليم . فلم يعد الصراع بين عرب مسلمين وجنوبيين أفارقة مسيحيين ، وإنّما نزاع حول بواطن الأرض وخيرات الوطن . ومع الأسف يتمّ كلّ ذلك بأيدي سودانية . فلم تعرف النخبة السياسية الاجتماع والتوحّد منذ إنقلاب توريت سنة ١٩٥٥ ، وممّا زاد الطين بلّة تجاهل الطبقة السياسية الشمالية للنخب الجنوبية منذ بداية حركة التفاوض حول الاستقلال . وبذلك حدّد كلّ منهم مصادر مثاقفته وخلفية أفكاره وخياراته السياسية ، وقد انعكس ذلك على مجريات التفاوض الغامض منذ مؤتمر المائدة المستديرة بأديس أبابا ١٩٦٥ إلى إتفاقية نيفاشا ٢٠٠٥ .

ويطرح السؤال ثانية: من يؤجّج الصراع؟ ومن المستفيد من أزمة الرّعب؟ . تلك هي الإشكالية الحقيقية التي من أجلها كتبت هذه الصفحات ، وغيرها من البحوث التي لربّما لا تُحصى عدا . إلاّ أنّ الفَارق جد شاسع بين الجهدين ، إذ العبرة ليست بالتأريخ والتجميع ، فذلك جزء يسير وعمل محايد غالبا إن استُصحبت النيّة الطيّبة . وإنّما الأهمية في إعلان النتائج ، وما يتطلّبه ذلك من شجاعة بل ومجازفة حد المخاطرة ، في زمن تُحصى فيه على المرء أنفاسه ، فما بالك بمن يقترب من المحظور ويزجّ بنفسه في المناطق الممنوعة ويحاول تجاوز الخطوط الحمراء .

تلك هي قصّة هذا الكتاب الذي أردت من خلاله أن أوثّق لأزمة القرن العشرين: قضية جنوب السودان . إنّه من الخطأ ربطها بنازع سياسي قريب

يرتبط باستحقاقات الاستقلال ، أو تعليلها بقوانين تطبيق الشريعة الإسلامية التي تبنّتها الدّولة السودانية على عهد الرئيس السوداني جعفر محمد نميري سنة ١٩٨٣ . إنّ الأزمة السودانية ترتبط في جوهرها بالسياسة الإستعمارية التي رسمتها الدولة البريطانية ، وعبّرت عن نفسها في ما عرف لاحقا بقانون المناطق المقفولة لسنة ١٩٢٨ .

ويحصل لي الشرف أن أُسهم في توثيق وتحليل تلك الأحداث ، ووضعها بين يدي القارئ العربي عامّة ، والقارئ السوداني خاصّة . كما فعل ذلك من قبل المؤرّخ محمّد بن السيّد عمر التّونسي ومحمّد زين الدين التونسي . فكلّ منهما وثّق تجربته وسجّل ملاحظاته ، ويسعدني اليوم أن أشاركهم الجهد وأقاسمهم ذلك الشرف .

*****

obeikandl.com

بداية الطريق

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا من يوم ؛ ٠١ ديسمبر ١٩٩١ ، حين حطّت بنا الطائرة بمطار الخرطوم الدولي . الفصل خريف والطقس حار والمناخ غير الذي ألفته من قبل بشمال إفريقيا . كنت يومها قريب عهد بزيارتي الأخيرة إلى الجماهيرية اللّيبية . لقد مكثت بها فترة كافية سمحت لي بالإطّلاع على الكتاب الأخضر وبعض شروحاته . فعرفت تقريبا ما يريد قوله القائد اللّيبي معمّر القذافي ، ولكن في الوقت نفسه قدّرت أنّ آماله عريضة والواقع العربي لا يسعها .

أقلعت بنا طائرة الخطوط الجوية السودانية من القاهرة في آخر اللّيل عند الفجر ، كانت تغصّ بالسودانيين المهاجرين؛ خاصّة في أوروبا . جذبتني طريقتهم في إلقاء السلام وكيفية المصافحة وتبادلهم التحية ، بما لم أكن أعهده عند بقية العرب . لقد خضت لأوّل مرّة رحلة الصحراء . كنّا في الطّائرة ، ولكنّنا شعرنا بالتعب والملل لطول المسافة . صحراء ممتدّة لا يحدّها البصر ، ولا يفصل ثنايا جسدها الذهبي إلاّ حزام أخضر ، يطوّق خصرها ، فيزيدها حسنا ، وأضفى عليها جنّتين عن يمين وشمال لذّة للآكلين . إنّه نهر النيل العظيم .

تذكّرت ، وأنا في حالتي تلك ، شبابا سودانيين زملاء الدراسة بالجامعة التونسية ، وما كانوا عليه من كريم خُلُق وخفّة دم ، وما تميّزوا به من بداهة وذكاء ، وبعد نظر وحسن تقدير ، وكذلك من صبر وحِلم . لربّما كان لتلك الطبيعة القاسية والجميلة في آن أثرا في تكوين شخصيتهم ، وصقل مواهبهم ونماء ذكائهم وتفجير طاقاتهم . كنت ألمس ذلك من خلال اجتهادهم وتفانيهم في طلب العلم ، وألمحه في طريقة عيشهم البسيطة الخالية من التكلّف والتعقيد .

أخذت طريقي إلى قاعة الوصول ، وبعد أن تجاوزت الإجراءات الاعتيادية ، وأنا أنتظر حقيبتي ، وجدت نفسي بين خليط من موظّفي المطار؛ ألوان شتى ولغات عدّة ومظاهر مختلفة ، وتقاسيم وجه تميّزهم . منهم من بيده مِسبحة

وآخر في عنقه صليب أو لفافات جلدية صغيرة . فأدركت أنني في بلد يكوّنه أكثر من عِرق ، وبه أكثر من دين . فالمسبحة والصليب والتمائم كلّها شعارات دينية تعلن انتماء معيّنا . إلاّ أنّ القاسم المشترك بينهم هو الابتسامة والترحيب المبالغ فيه .

وأنا شاب يفع في بداية مرحلة الثانوية بأقصى الجنوب التونسي ، لم يتجاوز عمري سنّ الخامسة عشرة ، كنت وأترابي نتمنّى الأماني . فمنّا من يرغب في زيارة فرنسا عاصمة الأنوار ، وآخر يحلم بيوم يقضيه في لندن عاصمة الضباب ، أمّا من يتحدّث عن أمريكا فقد قصد المجهول وبالغ في الأماني ولربّما ألقى الشيطان في أمنيته . كنت نشازا بين المُتمنِّين ، خاصّة عندما أفصحت عن أمنيتي ، وأنا في تلك الفترة من العمر وبذلك المستوى الفكري البسيط . «إنّني معجب جدا بالسودان» . ضحك المستمعون ، وصاح أحدهم ساخرا:» أَوَتُرِيد أن تُأْكَل حيا» . قلت له: والله لا أعرف السبب ، المهمّ ينتابني هذا الشعور الغريب .

لقد كبرت ولازمتني تلك الأمنية . وبتقدّمي المعرفي ، وسعة إطّلاعي على تفاصيل قضايا العالم الإسلامي ، وحرصي على فهم مجريات أموره ومدى تأثيرها على مستقبل المنطقة ، بَدَأت نسبيا تتبيّن لي معالم تلك الأمنية ، وصرت حريصا بالفعل على زيارة السودان ومعرفته عن قرب؛ من حيث الجغرافيا والتاريخ والتكوّن العرقي والديني والسياسي ، وطبيعة حرب الجنوب وخلفية الصراع . لقد حقّق الله الأماني ، وزرت السودان لا ليوم أو أسبوع ، بل قدّر الله أن أواصل فيه دراستي الجامعية وأتخرّج من أشهر جامعاته ، ثم أحضّر الدراسات العليا بجامعة أم درمان الإسلامية ، لأنال درجة الماجستير والدكتوراة منها . فكانت رحلة شاقّة قُدِّرت بسبع سنين دأبا ، إتّصل ليلها بنهارها . تقلّبت فيها بين فصول الدراسة والمكتبات الجامعية ومكتبات العلماء وأهل الثقافة ممّن فتحوا مكتباتهم الخاصّة لطلبة العلم ورجال البحث على اختلاف تخصّصاتهم .

غادرت مطار الخرطوم مترجلا ، أجرّ حقيبتي الصغيرة المتواضعة . فكانت تسير على عجلاتٍ أنهكها السفر وأثر الجرّ على الأرض . فكنت كثير الإلتفات

إليها لأرجعها في موضعها الاعتيادي ، وأواصل الطريق . كنت في تلك الحالة ، يتقاسمني التعب وشدّة الحرّ ونظرات السودانيين المشفقة عليّ . فكان يخاطبني أحدهم: أتريد مساعدة يا أخ . كنت أبتسم شاكرا ، ليتلقّفني آخر بنفس السؤال . وصل صديقي السوداني الذي أعلمته بقدومي منذ فترة ، عانقني طويلا وبالغ في الترحيب . ولكن هذه المرّة كنت قد تعلّمت في الطائرة طريقتهم في التسليم والمصافحة والترحيب . بادلته نفس الشعور ولربّما أكثر . واصلنا الطريق معا سيرا على الأقدام خارج حِمى المطار ، ثمّ صعدنا حافلة شعبية مكتوب على جانبها الذي من جهتي « المركز الإسلامي » ، اتّجهنا إلى وسط العاصمة « الخرطوم » ، ومنها غيّرْنا حافلة أخرى إلى مدينة الخرطوم بحري .

كان صديقي السوداني يحدّثني عن السودان ، ويشرح لي بعض الأحداث الجارية يومها ، خاصّة حرب الجنوب وجهود الوساطة وجولات المفاوضات . جمع في حديثه بين التاريخ والحاضر والسياسة والدين والقضايا الحضارية . وكنت في تفاصيل كلّ ذلك أخزّن المعلومات وأرتّبها . وحسنا فعل ، فقد كان ذهني خاليا عن المعطيات الدقيقة المرتّبة ، مستعدا للتلقي ، ولكنه قادر على التمييز بين ما يمكن أن يقع فعلا وبين ما هو مبالغ فيه ، نتيجة حدّة الأزمة وتعاظم خطر الحرب وآثارها النفسية والأمنية والاقتصادية على السودانيين . وأذكر أنّ من جملة ما حدّثني عنه المؤتمر الوطني الأوّل حول قضايا السلام ، ومؤتمر الاستراتيجية القومية الشاملة ، الذي كانت مهمّته التطلّع إلى الوصول بالسودان إلى مرحلة الصفر . أي الخروج بالسودان من المستوى السلبي ما تحت الصفر ، إلى مرحلة الصفر أي « الوضع الطبيعي » ، ثم الإنطلاق به إلى الأمام في ركب التقدّم والازدهار .

شاء القدر أن أنهي إجراءات التسجيل بجامعة أم درمان الإسلامية في نهاية الآجال القانونية . فصرت أقسّم وقتي بين المحاضرات بمدرج الجامعة وبين المكتبات لتدارك ما فاتني من مواد مقرّرة في السنوات السابقة . كانت مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية من أعظم المكتبات التي شاهدتها . قلّ وندر أن طلبتُ كتابا بعينه ولم أجده . فقد كان الدكتور التوم الطالب ، رحمه الله ، يُجهد

نفسه لتغذية المكتبة بالجديد برغم قلّة الإمكانيات وشُحّ الموارد المالية . كما كان الأستاذ محمد البشير أحمد ، المناول والمرشد بالمكتبة ، مثالا للموظّف المتفاني العارف . بحيث يستحيل أن يطلب منه الطالب كتابا ، ولا يقصده في مكانه ويمدّه به في الآن . فكنّا نسميه تندّرا وتقديرا « الكمبيوتر » .

وبفضل الله أُتِيحت لي فرص عديدة لمجالسة الرّجل الفاضل مدير جامعة أم درمان الإسلامية سابقا الأستاذ الدكتور علي أحمد بابكر ، فكان يمدّني بنصائح ثمينة ويوجّهني إلى التفاني في طلب العلم والاستزادة منه . ويقترح بعضا من المؤلّفات يحسن بنا مراجعتها . أمّا في مجال الفكر الإسلامي فقد وهبنا الله رجل علم وثقافة موسوعية وهو الدكتور شوقي بشير عبد المجيد . فكان يبذل الجهد في إعطاء الطّالب كلّ ما في وسعه ، حتى لكأنّنا ورثته من بعده . ففتح لنا مجالات واسعة كنت شخصيا أجهلها . فلازمته ولم أعدم استشارته ، فكان يُسرّ بذلك ويثني علي ويدعو لي بالتوفيق . لذلك أعدّه بوّابتي الرئيسية إلى تخصّصي في قضايا السودان ، وسببا في ارتباطي بالدراسات التاريخية والدينية المتعلّقة به .

كنت في تلك السنة الدراسية أجهد نفسي استعداد لامتحان التخرّج ، واستقابالًا للسنة التمهيدية لدرجة الماجستير . إلاّ أنّني خصّصت جزءا من وقتي لفهم مقدّمات الشأن السوداني ، خاصّة وأنّ الحرب على أشدّها . كان همي معرفة الأسباب التاريخية لجذور الأزمة ، وهل لاختلاف الدّين من أثر في تغذية فتيل الحرب وتعثّر محاولات السلام؟ . وبمرّ الأيّام بدأت تتكشّف لي بعض الحقائق المكنونة ، وتوصّلت إلى معرفة جزء من المسكوت عنه . فقد كانت الحرب صامتة من حيث النوايا الخفية ، معلنة من حيث الأسباب القريبة . ساعدني كثيرا في متابعة مسار الأحداث علاقاتي الحميمية مع كلّ زملائي بالجامعة ، برغم اختلاف مشاربهم السياسية وعدائهم المستحكم فيما بينهم . فقد كانوا رحماء مع عدوّهم؛ بالتنسيق معه ، أشداء فيما بينهم ، إلى حدود مستهجنة .

مرّت السنة التمهيدية وواجهت لأوّل مرّة سؤال الأستاذ المشرف: هل

اخترت موضوعا أو فكّرت في بعض الاشكالات التي من الممكن أن تفيد في تحديد وجهتك العلمية المستقبلية؟ . واجهني الدكتور شوقي بشير عبد المجيد بهذا السؤال ، وزاد في الثناء ممّا أحرجني وأثقل مسؤوليتي . لقد كنت في خلال تلك السنة التمهيدية جمّعت الكثير حول قضايا السودان التاريخية والمعاصرة ، ولم أنتبه إلاّ وقد ملأت خزانة بحوثا وكتبا وجذاذات بها ملاحظات دقيقة ، هذا إلى جانب ورقات ومداولات بعض المؤتمرات المهمّة التي عُقِدت بالخرطوم ، وخاصّة مؤتمرات حوار الأديان . كنت أفتخر بتلك الوثائق وأرتّبها . وزاد اهتمامي بها عندما صارحني أحد المنظّمين لمثل هذه الملتقيات بفحوى خطابه: أنّ مثل هذه المؤتمرات سرعان ما تُنسى ، وأنّ ملفّاتها تلقى مباشرة في مخازن ولربّما لا يُرجع إليها أصلا .

أذكر أنّني قدّمت للأستاذ الدكتور أحمد محمد أحمد جلي وكان يومها عميدا لكلية أصول الدّين ، التي شرُفت بالانتساب إليها ، أكثر من ثلاثة عشر موضوعا اقترحتها لإعداد رسالة الماجستير ، رُفِضت كلّها . وكنت صراحة لا أريد التفكير في بحث تنعدم فيه المصادر والمراجع ، خاصّة في قضايا حديثة تتطلّب عملا ميدانيا وجهدا لا تُعرَف نهاياته . عندها قرّرت أن ألتفت إلى خزانتي الخاصّة ، وأخرجت دررها وبدأت أرتّبها من جديد . فقسّمتها أبوابا ثلاثة: التاريخ والدّين والسياسة . وأعددت خطّة علمية أولية كان عنوانها : « الديني والسياسي في الحوار الإسلامي المسيحي بالسودان » .

دخلت إلى مكتب العميد ووضعت بين يديه مشروع البحث . تلقّف الدكتور شوقي بشير عبد المجيد العنوان ، عرف ما أريد قوله وماقدِمت عليه من عمل ، خاصّة وأني كنت صارحته ببعض آرائي في تلك القضايا . إلتفت إلي وخاطبني: هذه المواضيع التي نريدها ، يكفي تكرارا للمواضيع القديمة التي قتلت بحثا . سنوافق على هذا الموضوع ، إنّه يتعلّق بالواقع ، الذي لم يجرأ طالب سوداني على الكتابة فيه وخوض غماره . أحسست بثقل المسؤولية وشعرت بالنّدم ينتابني . وجّهني العميد إلى التدقيق في بعض الجزئيات المهمّة بعد أن أجاز مشروع الخطّة أوّليا ، على أن تمرّ عبر القنوات العلمية الاعتيادية .

بعد مراجعات عديدة ، خاصّة على مستوى عنوان الرسالة وبعض المباحث ، صيغ العنوان النهائي على النحو التالي: الحوار الإسلامي النصراني بالسودان ، أبعاده الدينية والسياسية . وقُسِّم البحث إلى ثلاثة أبواب . بدأت العمل الأولي وأنا أسابق الزّمن استعدادا للمؤتمر الثاني للحوار بين الأديان الذي سيعقد خلال أشهر بالخرطوم ، وذلك بتاريخ ٠٨-١٠ أكتوبر ١٩٩٤ . فكنت أمني النفس بمتابعة هذا المؤتمر وأنا أحمل صفة باحث جامعي . وللأمانة التاريخية أشهد أنّ ذلك المؤتمر كان إضافة نوعية وتقليدا جديدا في ميدان المؤتمرات الدينية . فقد عقد هذا المؤتمر بناء على توصية المؤتمر الأول ، وتفاعلا مع مؤتمرات ولائية عديدة عُقِدت في نفس الإطار . كما أعترف بأنّ مشاركتي في مختلف الجلسات ومتابعتي لأغلب الورقات التي عرضت ، أعانتني بشكل لم أتوقّعه ، ليس على مستوى المادّة الأولية فقط ، بل على مستوى مفردات ومباحث الرسالة ، التي بدّلت فيها وحوّرت الكثير .

مرّت السنة الأولى من البحث . كان الأستاذ المشرف يشجّعني ، في حين أشفق علي الآخرون . كنت أتقدّم كمن ينقش الصخر ، لا أكاد أتخلّص من مبحث إلاّ وتواجهني عقبة كؤود أشدّ من سابقتها . فتذكّرت حال ابن منظور وهو يضع كتابه الفريد «لسان العرب» ، حيث قال في مقدّمته يصف حاله: "فجمع هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون» . وبرغم ذلك فقد أنجز العلاّمة اللّغوي كتابه ، ويسّر الله وحده أن أبذل وسعي وأنهي عملي أواسط ١٩٩٦ .

كنت أفتّش على المعلومة حيثما كانت . فأتنقّل بين المكتبات واتّصل بمن أرجّح قدرته على التوجيه والنّصح . فأُتيحت لي فرصة ثمينة للاطّلاع الدّقيق على جميع وثائق المجلس الوطني الانتقالي ممّا له علاقة بالمؤتمرات والملتقيات . فبذل القائمون على قسم الوثائق جهدا أسأل الله أن يوفي لهم به الأجر والمثوبة . وخلال تلك الفترة كنت أقف على حجم الكارثة التي حاقت بتلك المؤتمرات التي بذلت فيها الأموال والوقت والجهد . فتذكّرت فحوى كلام ذلك الرّجل: "أنّ مثل هذه المؤتمرات سرعان ما تُنسى ، وأنّ ملفّاتها تلقى مباشرة في

مخازن ولربّما لايُرجع إليها أصلا» . وجدت صناديق المحفوظات في حالة يُرثى لها ، مبعثرة غالبا . حتى لكأنّ يدا لم تمتدّ لها منذ أمد بعيد . فكنت أفتّش في المكتبات وأسأل: هل توجد قراءات لتلك الوثائق ، هل ألّفت بعض الكتب وجمّعت فيها مقرّرات وملخّصات المؤتمرات المتعلّقة بالشأن السوداني؟ . ولكن لا إجابة .

عندها يمّمت وجهي إلى أهل القرار والشخصيات السودانية التاريخية أطلب مجالستهم والتحدّث إليهم في شأن بلدهم ، فوجدت الكثير المفيد والنادر المغني . كما لاحظت تأثّرا بالغا من بعضهم خاصّة وأنّني أتيته في وقت متأخّر نسبيا وقد بلغ من الكبر عتيا . وممّا لا أنساه جلستي الرّائعة مع السيّد المحترم إدريس البنا؛ عضو مجلس السيادة السوداني سابقا . وكذلك ساعة من يوم قضّيتها مع الأخ الفاضل والرّجل العامل السيّد محمّد الأمين خليفة ، حين استقبلني بمكتبه يوم أن كان رئيس المجلس الوطني الانتقالي . فكانت جلسة مصارحة وبيان ، أغنتني عن ألف سؤال وسؤال ، وأثرت البحث بشكل منقطع النظير . وغير هؤلاء الرّجال كثير ممّن أفادني وأرشدني ، وبثّ في نشاطا وحيوية ، وهوّن علي مشقّة البحث والتنقيب . وكنت أصارحهم بخطإ إهمال تلك الوثائق ، وعدم تكليف بعض الباحثين وتحفيزهم للقيام بدراسات تحليلية ونقدية لها .

كانت تلك علاقتي الأولى بالشأن السوداني ، الذي لا أدّعي معرفته ، ولكن لا أعدم إحاطتي بجوانب كثيرة منه . لقد تكشّفت لي خلال مسيرتي البحثية الكثير من الحقائق التي ما كنت أتوقّعها أصلا ، أو ما خطرت على بالي بالمرّة . عندها اقتنعت أنّ الأزمة السودانية ليست أزمة داخلية فحسب ، بل هي أزمة خُلقت لخدمة مشروع آخر يتجاوز السودان إلى إطار أوسع يتعلّق بالمنطقة العربية خاصّة والإفريقية عامّة ، أي أنّ الأزمة السودانية تتنزّل ضمن مشروع جديد يهدف إلى إعادة صياغة المنطقة حضاريا واقتصاديا وسياسيا . وما الحركة الشعبية لتحرير السودان أو الأحزاب السياسية السودانية التي صهِرت في خيارات جون قرنق وانزلقت في السياق الأمريكي ، إلاّ واجهة خارجية لبواطن الصراع ، الذي لم تسلم بعض الدّول الأوروبية من توظيفها فيه .

لقد جاء البحث الذي بدأته سنة ١٩٩٤ وأنهيته سنة ١٩٩٦ ، أوّل لبنة علمية تفاعلت إيجابيا مع الوثائق الرسمية ومختلف المؤتمرات والندوات والسمنارات ، استفاد منه الكثير من المهتمين بالشأن السوداني ، وقد لاحظت ذلك من خلال كثرة الرّجوع إلى الرسالة الأصلية بمكتبة أم درمان الإسلامية ، أو من خلال الرجوع إلى النسخة المطبوعة بعد أن طُوِّرت وحُيِّنت تحت عنوان: « تأصيل الحوار الديني: تأصيل المصطلحات وتحديد الضوابط الشرعية ، مع مثال تطبيقي (السودان نموذجا) » . وقد نشرته دار الكلمة بمصر سنة ٢٠٠٤ .

ويشرّفني جدا أن أقدّم اليوم بحثا جديدا يتعلّق بالسودان . ذلك البلد العظيم الذي لا يعرف قيمته وأهميته إلاّ من تعرّف على تفاصيله ووقف على دقائق أموره . وعجبي من غفلة الباحثين المسلمين الغيورين على أمّتهم وبلادهم أن لا يتّجهوا إلى السودان بالبحث والتنقيب ، والتعريف بقضاياه وبيان خلفية الصراع الذي قدّر له أن يعيش ويلاته ويذوق مراراته . ولكم تمنّيت أن تقوم بعض المراكز العربية والإسلامية المختصّة بتوحيد جهودها ، وتكليف فريق عمل تخصّصه فقط للشأن السوداني ، وترصد له الإمكانات اللاّزمة للقيام بعمل دقيق وجاد ، وكلي قناعة أنّ تلك المهمّة الأوّلية لن تتجاوز الخمس سنوات ، وستكون سببا في تغيير وجهة سير المؤسّسات السياسية والاقتصادية الدولية نحو الاتّجاه الصحيح ، وقبل ذلك والأهم هو إحداث حركة وعي جماهيري تعيد تشكيل العقل العربي والإسلامي ، وتسهم في تنضيج أفكار مستقبلية أكثر جدية وجدوى .

وقبل ذلك وبعد أرجو من جهة القرار بالحكومة السودانية أن تفتح الأبواب مشرعة للباحثين مهما تعدّدت جنسياتهم وتباينت خلفياتهم ، وتمدّهم بالمعطيات الدقيقة والمفيدة ، بما يسهم في تنشيط حركة بحثية عقلانية . فكثيرة هي البحوث التي وقفت عليها جمعت بين الغثّ والسمين ، وخطرها كبير . فهي لا تعطي الصورة التي من المفترض أن يقدّمها الباحث المختص . مع العلم أنّ الملحقيات الثقافية بالسفارات السودانية بأوروبا لا تقدّم المفيد للباحثين . فلقد حاولت تكرارا ومرارا في فرنسا الحصول على معلومات أو بعض الوثائق ، وانتظرت

لسنتين وأكثر ، ولم أجن إلاّ الانتظار والتعب . وهذا لا يحقّ في بلد يتعرّض لمؤامرات رهيبة لربّما تذهب بوحدته .

لقد حاولت في هذا البحث الجمع بين المعلومة والتحليل والنقد ، لأجعل منه كتابا متحرّكا يحاور فكر القارئ ويستفزّه . كما حرصت خلال عملي أن أرجع إلى الوثائق الرّسمية والآراء الأصلية لأصحابها ، ولا نلجأ إلى النّقل إلاّ عند الضرورة . كما ابتعدنا كلّ البعد عن النّقد الجاني أو التجريح أو الاتّهام ، ومن يلاحظ شيئًا من ذلك في البحث إنّما هو من قبيل تقرير مسألة واقعة ، نعزوها لمصدرها ونبرهن عليها . همّنا الوحيد البحث عن الحقيقة . وإنّني لألتمس عذرا ممّن أحرجته بعض عباراتي أو المعلومات التي تهمّه . كما ألتمس من كلّ قارئ أن يبدي رأيه في البحث ، وأقبل سلفا وبلا شرط كلّ المراجعات الفكرية الجادّة التي من الممكن أن تفيد عند إعادة طبع الكتاب ثانية [1] .

كما يسعدني أن أضع بين يدي القارئ العربي جهد ستة عشرة سنة ، هي خلاصة بحث وتنقيب في الشأن السوداني . أقدّر أنّها كافية للإسهام في إدارة حوار جاد بين المختصين والمتابعين من خارج دائرة الصراع . وأملي أن تنخرط النخبة السودانية في مشروع فكري تتجاوز فيه الخلافات التاريخية والولاءات التقليدية ، نحو شراكة فكرية أكثر عقلانية واستشرافا للمستقبل . فالتاريخ لا يرجع إلى الخلف ، كما أنّ البندقية والدماء ليست هي الحل الأبدي والأمثل . فالأمن والاستقرار لا ينموان إلاّ في ظلّ السلام ، كما أنّ السلام لا تضمنه إلاّ القوّة الضاربة . فالأمن والسلام والقوّة العاقلة ، هي أسس التقدّم ودعائم مشروع النهضة الحقيقية .

وإنّني أسأل الله تعالى صادقا أن يوفّق القائمين على أمر الحوار والسلام بالسودان إلى ما فيه خير البلاد والعباد ، وما يقرّب ويوحّد ويجبر الكسر ويرجع البسمة إلى شفاه الصبيان والثكالى والأرامل ضحايا الحرب . وإنّه قادر سميع مجيب . كما أجد نفسي في هذا المقام مدينا إلى زوجتي الفاضلة على صبرها

---

(١) يمكن التواصل مع الباحث على البريد الإلكتروني الشخصي: www.fadhel_lafi@yahoo.f

وعونها ومشاركتها لي في مختلف مراحل هذا الجهد المضني ، وألتمس عذرا من بنَيَّ سلسبيل ووِجدان على تقصيري في حقّهما طيلة هذه الفترة ، التي تطلّبت مني أسفارا ورحلات ، فسهرت من عملي هذا اللّيالي حتى خرج في صورته النهائية . فأسأله تعالى أن يتقبّل ذلك ويجعله في ميزان الحسنات .

*****

obeikandl.com